الفصل الأربعون

الملحق التجاري

ضحك المقدم حميد والملحق التجاري لدولة إشتراكية يـضع علـى طاولته مظروفا هو حصته من الأرباح، لتدخّله فـي إجهـاض صـفقة تجارية تموينية في إحدى المناقصات لصالح تلك الدولة بخسارة باهظـة لسوريا، لقاء اقتسام الفروق بينه وبين الملحق مع الفئة الوثيقـة الـصلة بكليهما.. وهكذا كان عرق العمال والفلاحين والكادحين تتحـول بفعـل ساحر الى ذهب في جيوب رجال المخابرات الذين جعلوا أموال الدولـة ثروتهم الخاصة. قال المقدم:

-كيف تتصرف لو علمت حكومتك بما تفعل؟ فأجاب الملحق ضاحكا بدوره:

-أفعل ما فعله سواي.. أختار الحرية..

-وأين تضع أموالك؟

-في بنوك سويسرا.

-وأنا أفعل ذلك.

-ربما التقينا معا ذات يوم في سويسرا.

-لو أنني طلبت يوما الإلتجاء الى بلادكم هل تلجؤوني؟

-لاأحسب حكومتي ترضى، فأنت تجاد الـشيوعيين، ولكـن لمـاذا تسأل؟ أهناك ما يخيفك؟

-ان مثلي عليه أن يحسب كل الاحتمالات.

-أتمنى أن لا تضطر يوما لترك بلادك.. من العسير أن أجد صـديقا مخلصا متفهما مثلك..

-أتمنى أن لا نقع يوما بأيدي خصومنا.. لو كان هناك شعب يحاسب لأعدمنا على ما نقترف كل يوم من خيانات في نظره..

-هراء ، ليس من شعب يحاسب.. الشعب كلمة اخترعها الشيوعيون ليقولوا "كان الرجعيون الخونة ينهبون الشعب أما نحن فننهب الدولة عن الشعب.."

وضحك الصديقان طويلا وأردف الملحق:

-أيريدون أن نكتفي برواتبهم التافهة؟ ان عرف الإنسان الأوتار التي يعزف عليها لن يسمع نغمة نشاز تزعج أذنيه.. حين أذهب الـى بلـدي أحتار أين أخبئ سيارتي الخمرية الأميركية خوف العيون الحاسدة المليئة بالاتهام.. أنى لك هذا؟. . أعرف ما يتحدثون به عنـي فـي مجالـسهم ولكنني لاأبالي.. هم محتاجون الي، وأنا أخـدمهم بطريقـة مـا ولهـذا يتغاضون، ولا يستطيعون الإستغناء عني..

ووافقه المقدم :

-ليس من جريمة يقترفها انسان في حق نفسه أكثـر مـن جريمـة الفقر.. لايفعل هذا الا البلهاء..

-كان أبي أحد هؤلاء البلهاء.. لقد أنفق ثروته الطائلة على الحـزب ولهذا يكرمونني، ويغضون الطرف عني.

-ولم فعل ذلك؟

-عقل تولستويي.. وأنا لا أفعل أكثر من أن أسترد ثروة أبي التـي حرمنا منها ببلاهته.

-هذا حقك لاشك فيه.

-لاتعترف حكومتي لي بهذا الحق، ولهذا أطلب منك خدمة، لا أريد أن أترك خلفي أثرا أو شاهد اثبات.

-هل أنت في ورطة؟

-تقريبا.. هناك محام عن الحكومة السورية أوكل في دعوى صـفقة أسلحة شريت قبل الوحدة، ولقد كشف بطريقة ما تلاعبنا. ولقد علمت أنه سافر الى بلادي ليشكوني للحزب، فلا تعطيه جوازا.

-من هو؟

-رزق الله...

-عرفته! جئت متأخرا، انه سافر البارحة.

وضرب الملحق بجمع يده الطاولة، وتجعد وجهه بتعـابير الخـوف والقلق:

-سيكشف أمورا خطيرة تفضح الكثيرين..

-ماذا تريدني أن أفعل؟

-الأمر يسير ما دام الشيوعيون ملاحقين..

-كيف أفعل وهو خارج سلطتي.؟

إختر اثنين من مباحثك الأكفاء، أسهّل لهما اللحاق بـه وقتلـه.. وأنـت تتخلص من عدو، شيوعي صلب يحشر أنفه في أمور كثيرة..

-والثمن؟

-مائة ألف..

ورفع المقدم حاجبيه غير موافق..

-مائتان..

-لا

-ثلاثمائة.

-لايمشي الحال..

-قدّر المبلغ الذي يناسبك..

نصف مليون، لي الربع، والربع الآخر مناصفة بين الرجلين، نقدا اذا سمحت..

-المبلغ كبير.. لايستحق أي شيوعي مثل هذا المبلغ على رأسه..

-ليس كبيرا على من ربح حتى الآن اثني عشر مليونا، انقاذا لسمعته ولحياته..

-كيف عرفت؟

-وماذا نفعل اذن؟ في مـصر عنـدما ضُـربت حركـة الإخـوان المسلمين، جمع رجال المخابرات الملايين من الـسماح سـرّا لأهـالي السجناء أن يروا مساجينهم ويطمئنوا على أنهم لايزالون على قيد الحياة.. أما هنا فالشيوعيون فقراء ولا نربح شيئا عن هذا السبيل.

ووافق الملحق على مضض، لقد شعر أن المقدم يصبح أكثر جـشعا يوما بعد يوم، وأنه مجبر على أن لايرفض طلبه مـا دام فـي الـسلطة يخدمه.. وأردف المقدم كأنما ذكر أمرا:

-على فكرة، التاجر الذي خسر الصفقة أصبح في "بيت خالته".

ولما بدا أنه لايدرك مدلول العبارة أضاف:

-بيت خالته، أي السجن.. يستأهل على طول لسانه..

وضحك الملحق: - العصر يخدمنا، كل شيء يتم بـسهولة بحجـة ملاحقة الشيوعيين.

-التجار وجبة دسمة عندنا، يضعون أيديهم على كل ثـروة البلـد.. سترى، لن أخرجه الاّ بعد فدية كبيرة، سأهينه وأعذبه حتـى يرضـخ.. يقول أن له عيالا كأنما نحن ليس لنا عيال ونحب أن نرتزق.

-واذا هاجمك في المحكمة؟

-أية محكمة! ندفنهم أحياء ولا يشهدون محكمة!..

ولم يلبث أن رن الهاتف وأعلن السكرتير للمقدم حـضور الملحـق العسكري الأميركي، فودع الملحق التجاري الإشتراكي ليـستقبل ضـيفه اللاحق بنفس الحرارة التي ودّع بها الضيف السابق..

قال الملحق بعد أن حيا:

-حتى اليوم لم تفرجوا عن المتهمين في دعوى المالكي..

واستكان المقدم وقال معتذرا وقد اتخذت لهجته نعومة بالغة:

-لايمكن لنا أن نفعل ذلك دفعة واحدة، وأمام عيون النـاس يـسرح ويمرح القوميون السورين.. الرأي العام ضدهم..

-لعلنا نرسلهم الى السعودية ونوظفهم في الشركات الأميركية.

-في رأيي أن من الأفضل أن نفرج أولا عن جماعة العجلاني، ليس دفعة واحدة، بل على مراحل، فهؤلاء ليسوا متورطين في جريمة قتـل. يجب أن لانثير الرأي العام، فلا بد أنك تعلم بأن تغيير قناعة بلد بأسـره ليس سهلا، البارحة كنا نشتم الإمبريالية ونلاحق عملاءها، وقد يتحـول الأمر الى عطف على الشيوعيين.

-أنت ترى سيدي المقدم ما يناسب، والمهم أن يفرج عـنهم جميعـا بأقصى سرعة ممكنة.

-عن بعضهم فقط، ثم بالتدريج.

-فقط ماذا؟

-أخبر سيادة السفير بأنني من أجل الأميركيين أسحق كل من قـال ذات يوم بأنه تقدمي، وبينهم أصدقاء لي، وأفرج عمن كنت أنـا نفـسي ألاحقهم قبل الوحدة، ومن هم باعتبار الناس أعداء للشعب.. لـو وقعـت بأيدي خصومي لمزقوني إربا، فكيف تعيش أسرتي من بعدي؟

-نحن لم نبخل بالمساعدات.. كنا عند وعدنا وأرسلنا معونة الطحين.

-أعني ما يخصني.. علي أن أضمن نفسي فحياتي في خطر دائـم..

-ستجد منا مايسرك، نحن نقدر خدماتك، هل وزعت معونة الطحين؟

-لكل قروي كيسان.. كان من الأفضل أن لايكتب علـى الأكيـاس Made in America فالناس هنا شديدو الحساسية تجاه الأميركان..

-أعرف ذلك.. مر بنا عيد رأس السنة قبل الوحدة والسفير لايستقبل رجلا واحدا من أهل البلد لتهنئته.. لقد أخذ يبكي للفشل الذي منـي بـه الأميركيون في المنطقة.

-نحن اليوم نقوم بجهد جبار كي نزيل الآثار الماضية..

-نحن نقدر هذه الجهود، وندعمكم بكل قوانـا.. أتمنـى أن تكـون المعونة قد تركت أثرا طيبا بين الفلاحين وبيّضت صفحة الأميركيين.

-علق كل فلاح استلم حصته صورة الزعيم التـي أرسـلناها مـع الطحين في صدر كوخه.. ولكن في رأيي أن هذا لايكفي، ينفق الفـلاح الكيسين، فاذا لم يرسل له غيرهما أسقط صورة الزعيم.. يجب أن نقـوم بأعمال أكثر ايجابية..

-مثلا؟

-نحقق إصلاحا زراعيا فنكسب جماهير الفلاحين، ونخفـف وطـأة الإستياء العام..

-لانعارض إصلاحا زراعيا..

-كنت أظن أنكم لاترحبون بهذه الخطوة..

-نرحب بها على شرط أن لا تأخذ شكلا جماعيا.. يجـب تـشجيع الملكية الفردية للأرض بعد زوال الاقطاع.. ما رأيك أن نرسل خبـراء زراعيين من طرفنا يدرسون الوضع؟

-أكون ممتنا..

-الى اللقاء، أرجوك لاتنس السجناء السياسيين الذين حدثتك عنهم.

-سأفرج على الفور عن ثلاثة منهم..

ولكن المقدم وجد حوله من الاقتصاديين من نصحوه بإقامة تعاونيات زراعية بعد إزالة سلطة الإقطاع فقام بزيارة للسفير ليحدثه بهذا الـشأن، وكان الملحق العسكري حاضرا.. قال المقدم:

-نحن نخشى من سلبيات الإنتاج.. ففي تجربة مصر كـان التملـك الفردي للأرض سببا في خراب الإقتصاد الزراعـي وخـصوصا فـي مزارع القطن..

السفير: يجب أن يشبع الفلاح ميله الى الملكية.. يشعر بزوال نيـر الإقطاع عن عنقه.. هذه هي الطريقة الوحيدة لكسبه، انه يكون أسعد لـو تحوّل الى مالك صغير..

-نحن بلد زراعي، فاذا انهار الإنتاج تحل كوارث إقتصادية بنا..

وطمأنه السفير، وتحدث عن الحوافز الفردية وأهميتها فـي زيـادة الإنتاج وأضاف:

-والى هذا فان المالك الصغير هو حاجز جيد أمام المد الشيوعي.

-كيف ذلك؟

-انه ينسجم أكثر مع التركيبة الإجتماعية ككل.

-ماذا يضير لو أحدثنا بعض التعاونيات الزراعية؟

-تخلي مكانك في النتيجة لممثلي الشيوعية..

-كيف ذلك؟

-حين تهدم حجرا في نظام، فلا بد أن يتبع ذلك هدم آخر في مكـان آخر، علاقة ريفية جماعية لابد أن يتبعها علاقة في المدينة جماعية مـن

جنسها، وهكذا يقضى على حرية الإنسان في العالم النامي في أن يكـون خلاقا ومبدعا، ويتبعه قضاء على حرية الإنسان في العالم المتقدم..

-انني أفهم.

-يجب أن تكون واثقا أنني لاأفرض رأيي ولكنني أبصرك بعواقـب الأمور، وفوق هذا فان شعبية أي حكم ترجح في توزيع ملكيات فرديـة، على إقامة تعاونيات أو مزارع دولة لا ترضي الفلاح المـتعطش الـى الحرية.

-ولكن اذا تدهور الإنتاج؟

-نحن مستعدون لمعونات أكثر.. ما يهمنا هو استقرار الحكم كي نتعامل معه..